

الفصل الثاني

ابن حزم.. واليهودية

أولاً: ابن حزم ونقده للمصادر اليهودية:

عاش ابن حزم في عصر وصل فيه اليهود إلى مناصب عالية في الدولة الإسلامية بفضل سماحة الإسلام، وكان في مقدمة هؤلاء الذين نالوا حظاً وافراً «إسماعيل ابن النغريلة اليهودي» الذي كان من الطارئین على الأندلس ولكنه استطاع بدهائه وفطنته أن ينال ثقة حكام المسلمين وإعجابهم حتى أصبح وزيراً «لباديس» يصرف شئون الدولة ويشارك في توجيه دفة الحكم.. وهذا السلطان الواسع الذي أحرزه إسماعيل مكن لليهود كثيراً في الشئون الإدارية والمالية لأنه كان يختار موظفيه من بنى جلدته، فاكتمسبوا جاهاً في أيامه واستطالوا على المسلمين^(١).

وقد أبى الحكام في هذا الوقت أن يضعوا حداً لهذه الحماقات، ويردوا الأمور إلى نصابها، وذلك لضعفهم وشدة فسادهم، وانشغالهم بالشرب واللهو، وترك مقاليد الحكم للحاشية والنساء من جانب.. وعدم اهتمامهم بقضية الإسلام من جانب آخر، فأدى هذا التطاول المستمر من هؤلاء اليهود إلى إثارة العامة من الناس^(٢).

فلا عجب أن نرى ابن حزم يحمل «سلاح الفكر» ليدافع به عن دينه، بعدما أعدّ العدة لذلك فقرأ التوراة قراءة واعية، ووقف عند كل نص فيها ليدرك مرماه، ويقف على معناه، ويبدو أنه كان لدى ابن حزم أكثر من نسخة من التوراة المترجمة إذ

(١) لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ١ / ٤٤٦.

(٢) يذكر ابن بسام في الذخيرة: أن ابن النغريلة اليهودي لما استمر في سفهه، هب الناس لطلبه فهرب إلى داخل القصر واتبعه العامة حتى ظفروا به وقتلوه، قيل إنهم وجدوه مختبئاً في مخزن للفحم وقد سود وجهه لثلا يعرف، ثم قصدوا اليهود فأحالوا عليهم قتلاً ونهبوا أموالهم (الذخيرة ١ / ٢ / ٢٧٢).

نجده يقول: «ورأيت في نسخة أخرى منها^(١)» ويورد نصًا مغايرًا بعض المغايرة لما أورده من قبل ..

بل إننا لنقرأ في دقة بالغة في كتابه «الفصل» وصفة لنسخة التوراة التي رجع إليها واستقى منها وذلك إذ يقول: «هي مقدار مائة ورقة وعشر أوراق في كل صفحة من ثلاثة وعشرين سطرا إلى نحو ذلك بخط هو إلى الانفساح أقرب، يكون في السطر بضع عشرة كلمة^(٢)» على أن مقابلة النصوص التي يوردها ابن حزم في كتابه «الفصل» بالترجمة الحديثة الموجودة بين أيدينا الآن تظهر لنا خلافا بين الترجمتين وهو خلاف أقرب إلى الألفاظ منه إلى المعاني، ولعل هذا يرجع في المقام الأول إلى أن ابن حزم كان يورد نصوص التوراة بتصريف وتلخيص في كثير من الأحيان..

وعندما يورد ابن حزم نصا من التوراة كان كثيرا ما يشير إلى موضعه منها، فيقول – مثلا – «في السفر الخامس من أسفار التوراة الذي يسمونه «التكرار» إن الله تعالى قال لموسى اصنع لوحين على حال الأولين، واصعد إلى الجبل واعمل تابوتا من خشب^(٣)» وسفر «التكرار» الذي يذكره ابن حزم هو ما يعرف في ترجمة «البروتستانت» الموجودة لدينا الآن «بالتثنائية» أو كما تسميه ترجمة الكاثوليك: «تثنائية الأشتراع» وأحيانا نجده يستعمل الأسماء العبرية، فيقول: (وأما الكتب التي يضيفونها إلى سليمان عليه السلام فهي ثلاثة واحدها يسمى «شارهسير» ثم معناه شعر الأشعار... والثاني يسمى: «مثلا» شاه الأمثال... والثالث يسمى: «فوهلث» معناه الجوامع^(٤)).

ولم يكتف ابن حزم بالرجوع إلى أسفار التوراة الخمسة بل درس الأسفار الأخرى، وكتبا وشروحا لليهود لا يسميها ويكتفي بأن يشير إليها – أحيانا – بقوله: «وفي

(١) الفصل ١ / ١٢١.

(٢) الفصل ١ / ١٨٧.

(٣) الفصل ١ / ١٩٨.

(٤) الفصل ١ / ٢٠٧ - ٢٠٨.

بعض كتبهم^(١)» كما يشير إلى كتاب «التلمود^(٢)» بقوله: «وفى كتاب لهم يسمى شعر توما من كتاب التلمود...^(٣)» وهذا الكلام ليس صحيحا، لأن شعر توما ليس مبحثا من مباحث التلمود، إذ إن التلمود يتكون من ستة مباحث تسمى «سيداريم» أى «أحكام» وهى كما يلي:

- ١ - زيرائيم (البذور) ويتضمن اللوائح الزراعية.
 - ٢ - موئيد (الأيام المقررة) يحتوى على لوائح الأعياد والصيام.
 - ٣ - نشيم (المرأة) يتضمن قوانين الزواج والطلاق والنفقة والناذر.
 - ٤ - نيزيكين (الأضرار) يشمل القوانين المدنية والجناائية.
 - ٥ - كوداشيم (الأشياء المقدسة) عن قوانين الصلاة.
 - ٦ - توهاروث (الطهارة) عن قوانين الطهارة والنجاسة^(٤).
- وقد أشار ابن حزم - أيضا - إلى القسم الخاص بالنساء من التلمود بقوله (وفى كتاب آخر من التلمود يقال له «سادرناشيم» ومعناه تفسير أحكام الحيض^(٥))

(١) الفصل ١ / ٢١٧ - ٢٢٨ ، ٢١٩ .

(٢) التلمود: عبارة عن الروايات الشفوية التى تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل ، وينقسم التلمود إلى جزئين هامين:

(أ) المشناه وهو الأصل (المتن).

(ب) جمارا، شرح مشناه.

(٣) الفصل ١ / ٢٠٧ - ٢٠٨ .

ومشناه أول لائحة قانونية وضعها اليهود لأنفسهم بعد التوراة، جمعها يوزا هاناسى فيما بين ١٩٠ ، ٢٠٠ أى بعد قرن تقريبا من تدمير «تيطس الرومانى» الهيكل.

أما «جمارا» فاثنان: جمارا أورشليم (فلسطين وجمارا بابل. جمارا أورشليم (أو فلسطين) هو سجل للمناقشات التى أجراها حاخامات فلسطين أو بالأخص علماء مدارس طبرية) لشرح أصول المشناه. ويرجع تاريخ جمعه إلى عام ٤٠٠م.

وجمارا بابل هو سجل مماثل للمناقشات حول تعاليم المشناه، دونها علماء اليهود، وانتهوا من جمعه سنة ٥٠٠م تقريبا.

فمشناه مع شرحه جمارا أورشليم يسمى «تلمود أورشليم»، ومشناه مع شرحه جمارا بابل يسمى «تلمود بابل وكلاهما يطبع على حده.

(٤) ظفر الإسلام خان: التلمود (ط الثالثة - دار النفائس).

(٥) الفصل ١ / ٢٢١ .

كما قرأ تاريخا لليهود لرجل منهم يسميه ابن حزم (يوسف بن هارون^(١)) ويقول عنه: إنه من كبرائهم وأئمتهم^(٢) ولعل من أهم عوامل اهتمام ابن حزم بدراسة هذه الكتب أن علماء اليهود كثيرا ما كانوا يختلفون - في مناقشاتهم معه - نصوصا لا تعرفها توراتهم ولم تثبت لديهم - قبل أن يطلع على توراتهم - ولذلك يقول في معرض حديثه عن كذب اليهود ونسبتهم إلى التوراة ما ليس فيها: «وكم عرض لنا هذا مع علمائهم في مناظراتنا لهم قبل أن نقف على نصوص التوراة، فالقوم لا مؤنة عليهم من الكذب حتى الآن، إذا طمعوا بالتخلص من مجلسهم لا يكون ذلك إلا بالكذب وهذا خلق خسيس، وعار لا يرضى به مصحح، ونعوذ بالله من مثل هذا».

ثم رأى ابن حزم أن معرفته بلغة خصومه - بجانب اطلاعه على نصوص كتبهم - بقوى من موقفه وينفى عنه سمة الجهل بما يوردونه من آراء فدرس اللغة العبرية. ولس هذا فحسب بل إننا لا نستبعد معرفة ابن حزم بالسريانية واللاتينية^(٣) معرفة جعلته يقارن بينها جميعا ويتحدث عن هذه اللغات حديث الخبير بها، المدرك لأسرارها، وقد كان ابن حزم «مولعا بتفحص الفروق في اللهجات الدارجة التي يسمعها حيثما حلّ وارتحل، فهداه تدقيقه إلى أن السريانية والعبرانية كانت لغة واحدة^(٤)»

فيقول في كتابه الإحكام: «إن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية العبرانية والعربية التي هي لغة مضر لا لغة حمير، لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها فحدث فيها جرش (احتكاك) كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة أهل القيروان، ومن القيرواني إذا رام نغمة الأندلسي، ومن الخراساني إذا رام نغمتها، ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد يقول إنها لغة أخرى غير أهل قرطبة، وهكذا في كثير من البلاد فإنه بمجاورة

(١) هو مؤرخ الشهير المعروف ببيسيفوس (٣٧-٩٥ ميلادية).

(٢) الفصل ١ / ٩٩.

(٣) ص ١٣، ٥٢، ٥٤ من التقريب لحد المنطق تشير إلى معرفته باللاتينية.

(٤) سعيد الأفغاني: نظرات في اللغة عند ابن حزم ٢٥.

أهل البلد بأمه أخرى تتبدل لغتها تبديلا لا يخفى على من تأمله^(١) وهذا تصوير للتطوير الدائب لحياة اللغة ليل نهار^(٢).

ويستمر ابن حزم في بيان أن تطور اللهجات ينتهي بقيام لغة جديدة مع الزمن أصلها كان لهجة، ويسجل لنا تحريفات شاعت في المتكلمين باللغة العربية من العوام أو من الأجانب المتعربين، فيلاحظ أن (العامّة قد بذلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلا، وهو في البُعد عن أصل الكلمة كلغة أخرى ولا فرق، فنجدهم يقولون في (العنب): (العينب)، وفي (السوط): (أسطوط) وفي (ثلاثة دنانير): (ثلثدا)، وإذا تعرب البربري فأراد أن يقول (الشجرة) قال: (السجرة)، وإذا تعرب الجليقي أبدل من العين والحاء هاء فيقول (مهمدا) إذا أراد أن يقول (مُحمدا)، وينتهي من هذه الملاحظة ليقدر أن من تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم، وأنها لغة واحدة في الأصل «هذا ولست أدري دليله في دعواه التي يختم بها ملاحظته السابقة: «وإذ قد تيقنا ذلك فالسريانية أصل العربية والعبرانية معا^(٣)» لِمَ لَمْ تكن العربية هي أصل السريانية عنده؟ سؤال لم يتحفنا هو بجوابه^(٤)

بعد هذا الاستعداد العلمي والتسلح بشتى ألوان الثقافة التي تمكنه من الدفاع عن عقيدته نراه يقف وجها لوجه أمام أعتى المجادلين من اليهود في شئون العقائد، مما جعل بعض المؤرخين يقول: «ولهذا الشيخ أبي محمد مع يهود - لعنهم الله - ومع غيرهم من أولى المذاهب المرفوضة من أهل الإسلام مجالس محفوظة، وأخبار مكتوبة^(٥)» ولعل ظروف المواجهة بينه وبين اليهود في الأندلس هي التي دفعت

(١) الإحكام ١ / ٣١.

(٢) الإحكام ١ / ٣٢ - جليقية: بلد في أقصى الشمال الغربي من إسبانيا تقع على المحيط (معجم البلدان).

(٣) الإحكام ١ / ٣٢.

(٤) سعيد الأفغانى: نظرات في اللغة عند ابن حزم ٢٧ (ط الثانية دار الفكر - بيروت).

(٥) ياقوت: معجم الأدباء ١٢ / ٢٥١.

به دفعا إلى مجالس الجدل والمناظرة التي عرفت له والتي كان من ثمرتها كتابه الكبير: «الفصل في الملل والأهواء والنحل».

ولكن ما هو المنهج الذي كان يلتزم به ابن حزم في مناظراته ومجادلاته، والطريقة التي سلكها وهو يقارن بين العقائد اليهودية والعقائد الإسلامية؟؟. هذا ما سنحاول الإجابة عليه في المباحث التالية بإذن الله..

ثانيا: منهج ابن حزم في مناقشة اليهودية:

نلاحظ أن ابن حزم كان له منهج عام في مناقشة اليهودية يسير عليه ويلتزم به، ذكره في كتابه «الفصل» إذ كان يحرص - دائما - قبل أن يناقش خصومه أن يحدّد الطريقة التي يرتضيها منهجا للبحث وأسلوبا للحوار..

١- أول ما يطالعنا في هذا المنهج أنه كان يبتعد عن النصوص الغامضة المعنى ويلتمس لأصحابها عذرا، فقد تُصيب هدفها على وجه ما - على حد تعبيره - وإنما كان يلجأ للنصوص الواضحة التي وضح فيها الكذب بحيث لا يخفى على أحد، ولنستمع إليه يقول في مقدمة نقده للأسفار المقدسة عند اليهود: «نذكر إن شاء الله - تعالى - ما في الكتب المذكورة من الكذب الذي لا يشك كل ذي مسكة تمييز في أنه كذب على الله - تعالى - وعلى الملائكة، وعلى الأنبياء عليهم السلام إلى أخبار أوردوها لا يخفى فيها على أحد، كما لا يخفى ضوء النهار على ذي بصر»^(١)

كذلك كان لا يناقش النص الذي يحتمل تأويلين وتختلف فيه وجهات النظر وإنما كان يردّ النصوص التي وضح فيها التناقض بحيث لا تحتمل تأويلين، ولا يختلف اثنان على أنها كذب محض وضلال خالص..

يقول ابن حزم: «وليعلم كل من قرأ كتابنا هذا أننا لم نخرج من الكتب المذكورة شيئا يمكن أن يخرج على وجه ما، وإن دقّ وبعُد، والاعتراض بمثل هذا لا معنى له

(١) الفصل ١ / ١١٦ .

.. وكذلك -أيضا - لم نخرج منها كلاما لا يفهم معناه، وإن كان ذلك موجودا فيها، لأن للقاتل أن يقول قد أصاب الله به ما أراد، وإنما أخرجنا ما لا حيلة فيه ولا ودجه أصلا إلا الدعاوى الكاذبة التي لا دليل عليها أصلا، لا محتملا ولا خفيا^(١)».

ولا شك أن هذا المسلك الذي اتبعه ابن حزم يعطية قوة في الجدل وصلابة في موقفه، تجعل خصمه يستسلم أمام سهم نقده.. كما أن تجاوز ابن حزم للنصوص الغامضة أو الآثار التي تختلف فيها الآراء والأفكار يدل على نزاهة خلقه، وأنه لا يتصيد لخصمه الأخطاء ولا يلتمس له الثغرات لنيقذ إليه منها، وتلك ميزة أخرى من مميزات الجدل عنده.. والذي يقرأ كتاب «الفصل» يجد فيه مثل هذه التعبيرات: «ولو كان لهذا الخبر وجه وإن غمض، ومخرج وإن بُعد، أو أمكنت فيه حيلة، أو ساغ فيه تأويل ما ذكرناه^(٢)» ويقول - أيضا-: «وفي توراتهم عند ذكر أولاد «عيساوا» خبال شديد، وتخليط في الأسماء والولادات، إلا أنه ربما خرج على وجوه بعيدة ضعيفة فلم نعتن بإيراده لذلك^(٣)».

ونراه يعقب على قصة ذكرها من التوراة بقوله:

«وذكر في هذا الفصل قصة أخرى فيها اعتراض إلا أنها تخرج على وجه ما فلذلك لم نفردها فصلا.. وقد قلنا: إن كل ما يمكن تخريجه بوجه وإن بُعد فلسنا تخرجه في فضائح كتابهم المكذوب...^(٤)».

(ب) ومن منهجه في مجادلة اليهود أنه لا يترك شبهة يمكن أن تثور في الذهن إلا عرضها وأجاب عليها.. فهو عندما ذكر نصا في التوراة جاء فيه «إن الله - تعالى - قال لإبراهيم: أنا الله الذى أخرجتك من أتون الكلدانيين لأعطيك هذا البلد حوزا فقال له إبراهيم: يا رب بماذا أعرف أنى أرت هذا البلد^(٥)».

(١) الفصل ١ / ١١٧

(٢) الفصل ١ / ١٤٤.

(٣) نفس الموضوع.

(٤) الفصل ١ / ١٥١.

(٥) سفر التكوين ١٥/٧-٨، ولفظه في الترجمة العربية الآن: «وقال له أنا الرب الذى أخرجتك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لثرتها، فقال أيها الرب، بماذا أعلم أنى أرتها».

ويعلق ابن حزم على هذا النص بقوله: «حاش لله أن يقول إبراهيم - رسول الله وخليله - لربه هذا الكلام، فهذا كلام من لم يثق بخبر الله - ﷻ - حتى طلب على ذلك برهانا.. وهنا يورد ابن حزم اعتراضا ويجيب عليه حتى يسد الطريق على خصمه ولا يترك مجال للمماحكة ولا للشبهات فيقول «فإن قال قائل جاهل ففى القرآن أنه - أى إبراهيم - قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ (سورة البقرة: ٢٦٠) وأن زكريا قال لله - تعالى - إذ وعده بابن يسمى يحيى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ (سورة مريم: ١٠) قلنا: بين المراجعات المذكورة فرق كما بين المشرق والمغرب، أما طلب إبراهيم ﷺ رؤية إحياء الموتى فإنما طلب ذلك ليطمئن قلبه المنازع له إلى رؤية الكيفية فى ذلك فقط، بيان ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَوَدَّ أَنْ يُقَالُوا لَوْلَا يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ (سورة البقرة: ٢٦٠) فوضح أن إبراهيم لم يطلب برهانا على شك أزاله عن نفسه لكن ليرى الهيئة فقط، وأما زكريا ﷺ فإنما طلب آية تكون له عند الناس لئلا يكذبوه، هذا نص كلامه، والذي ذكروه عن إبراهيم ﷺ كلام شك يطلب برهانا يعرف به صحة وعد ربه له، تعالى الله عن ذلك، وحاش لإبراهيم - ﷺ - منه^(١)..

(ج) يذكر الوقائع الإسلامية التى يوهم ظاهرها تشابها مع موضوع نقده فى التوراة ويزيل ما بها من لبس وغموض، مبينا الفرق بينهما وبين نصوص التوراة- كما فعل عندما تحدث عن رواية التوراة فى نسبتها لعب المصارعة إلى الله- تعالى - مع يعقوب^(٢).. هنا يورد قصة ركانة بن عبد يزيد الذى تصارع مع رسول الله - ﷺ - - وينتهى منها إلى أن ركانة كان من القوة بحيث لا يجد أحدا يقاومه فى جزيرة العرب، ولم يكن رسول الله - عليه الصلاة والسلام - موصوفا بالقوة المفرطة، وقد دعاه إلى الإسلام، ولكن ركانة قال له: « إن صرعتنى آمننت بك» ورأى أن هذا من المعجزات، فأمره - عليه الصلاة والسلام - بالتأهب لذلك فصرعه للوقت وأسلم ركانة بعد مدة فبين الأمرين فرق كما بين العقل والحقق، ولكل مقام مقال^(٣)..

(١) الفصل ٢٩/١ - ١٣٠.

(٢) الفصل ١٤١/١.

(٣) الفصل ١٤٢/١.

(د) ولا ينسى ابن حزم وهو يتحدث عن الوقائع الواردة فى التوراة أن يذكر حديث القرآن عنها ليبين الفرق بين كلام الله - سبحانه وتعالى - وكلام غيره من البشر، وليبرهن على أن هذا الكلام يستحيل أن يصدر عن المولى - ﷺ - كما فعل عند حديثه عن قصة السحرة مع موسى فى التوراة، واعترافها بأن السحرة قاموا بأعمال من جنس ما يأتى به الأنبياء كقلب العصا حية، وإعادة الماء دما، وغير ذلك من الغرائب التى لا يستطيعها إلا رسل الله بتأييد من الله لهم، فيذكر حديث القرآن عنها، ويأتى بالنصوص الواردة فيها.. ثم يعلق بقوله: «هذا هو الحق - أى نص القرآن وعرضه للقصة - الذى تشهد به العقول لا ما فى الكتاب المبدل المحرف، فصح أن فعل السحرة حيلة مموهة لا حقيقة لها، وهذا هو الذى يصححه البرهان، إذ لا يحيل الطبائع إلا خالقها شهادة لرسله وأنبيائه، وفرقا بين الصدق والكذب»^(١).

(هـ) وأحيانا يستعين ابن حزم بثقافته الموسوعية وعلمه الفياض بعلم التاريخ والأنساب - وهو صاحب كتاب جمهرة أنساب العرب - فى تأييد فكرته، وتقوية اعتراضه، ويقوم بإحصاء دقيق، واستقراء بديع يبهر الأبواب، فيقول عقب اعتراضه على كثرة أولاد بنى إسرائيل بهذه الصورة التى ذكرتها التوراة:

«وقد علم كل من يميز الرجال والنساء أن الكثرة الخاصة من الأولاد لم توجد فى العالم لصعوبة الأمر فى تربية أطفال الناس، ولكون الإسقاط فى الحوامل، ولإبطاء حمل المرأة بين بطن وبطن وكثرة الموت فى الأطفال، فهذه أربع عوارض قواطع دون الكثرة الخارجة فى الأولاد للناس، ثم كون الإناث فى الولادات أيضا، ولوطلبنا أن نعد من عاش له عشرون ولدا فصاعدا من الذكور وبلغوا الحلم فما وجدناهم إلا فى الندرة، ثم فى القليل من الملوك ونوى اليسار المفرط الذين تنطلق أيديهم على الكثير من النساء والإماء، ثم على الخدم اللواتى هم العون على التربية والكفالة، وعلى كثرة المال الذى لا يكون المعاش إلا به، وأما من لا يجد إلا الكفاف وفوقه مما لا يبلغ الإكثار من الوفرة ولا يقدر على المرأة والمرأتين ونحو ذلك، فلا يوجد

هذا فيهم البتة بوجه من الوجوه وخلا يمكن ذلك أصلا لهم لما ذكرنا أنفا من القواطع والموانع، وقد شاهدنا الناس وبلغنا أخبار أهل البلاد البعيدة، وكثر بحثنا عما غاب عنا، ووصلت إلينا التواريخ الكثيرة المجموعة في أخبار من سلف من عرب وعجم في كثير من الأمم، فما وجدنا في كل ذلك المعهود من عدد أولاد الذكور في المكثرين الذين يتحدث بهم عند كثرة الولد إلا من أربعة عشر ذكرا فأقل، وأما ما زاد إلى العشرينفنادر جدا هذه الحال في جميع بلاد أهل الإسلام، والذي بلغنا عن ممالك النصرارى إلى أرض الروم وممالك الصقالية والترك والهند والسودان قديما وحديثا، وأما الثلاثون فأكثر فما بلغنا إلا عن نفر يسير عمن سلف، منهم أنس بن مالك، وخليفة بن أبي السعدى وأبو بكر^(١)...».

ويستمر ابن حزم في استقصاء المكثرين من الأولاد في العرب والعجم واليهود ولا شك أن علمه بالتاريخ كان يمدّه بالإحصاءات التى تؤيد فكرته،، والحق أن هذا التتبع الدقيق، والاستقصاء النادر فى الشرق والغرب، فى العرب والعجم، فى المسلمين وغيرهم، يشهد لصاحبنا بقوة حافظته واتساع ثقافته، وتتبعه للنوادر والعجائب فى كل عصر ومصر، فى دقة متناهية، وتنسيق عجيب، وانظر كيف بدأ بالعرب الذين تجاوزت ذريتهم الثلاثين فيذكر منهم: أنس بن مالك، وجعفر بن سليمان، وعمر بن عبد الملك.. ولا يكتفى بالعرب بل يذكر من ملوك البربر من كان يرتب معه مائتا فارس من ولده، وولد ولده كما يذكر من اليهود رئيسا لهم يسمى «جدعون» كان له سبعون ولدا ذكورا.. ثم يقول عن الفرس:

«وتزعم الفرس أن «جودرز» الملك على كرمان له تسعون ابنا ذكورا بالغين^(٢)». وبعد هذه الإحصاءات يصل ابن حزم إلى النتيجة التى يريد أن يصل إليها وهى كذب التوراة وتحريفها وأنها ليست من عند الله - سبحانه - وإنما هى من وضع البشر، يقول ابن حزم: «فإذا كانت هذه الصفة لم نجدها منذ نحو ثلاثة آلاف

(١) الفصل ١ / ١٧٤.

(٢) الفصل ١ / ١٧٥.

عام إلا في أقل من عشرين إنسانا في مشارق الأرض ومغاربها في الأمم السالفة والخالفة، ممن علت حاله، وامتد عمره وكثرت أمواله وعياله، فكيف يتأتى من هذا العدد مالم يسمع بمثله قط في الدهر لا في نادر ولا في شاذ لبنى إسرائيل كافة بمصر؟! وحالهم فيها معروفة مشهورة لا يقدر أحد على إنكارها، وهي أنهم كانوا في حياة يوسف - عليه السلام - في كفاف من العيش، أصحاب غنم فقط، ولم يكونوا في يسار فائض، ثم كانوا بعد موت يوسف - عليه السلام - وإخوته فاقة عظيمة، وعذاب واصل، وسخرة متصلة، وذل راتب، وبلاء دائم، وتعيب زاهق، يكاد يقطع عن الشيع فكيف الاتساع في العيال، والأشر في الاستكثار من الولد؟ فهذه كذبة عظيمة مطبقة فاضحة^(١)..

ثالثا: منهج ابن حزم في نقد التوراة وإثبات الوضع والتحريف:

اهتم ابن حزم بتقد التوراة اهتماما كبيرا.. وذلك يرجع إلى أمرين:

الأول: أن جمهور اليهود يرون أن التوراة التي بأيديهم منزلة من عند الله - عز وجل -

- على موسى - عليه السلام - فاحتاج الأمر إلى بيان الحق في هذه الدعوى^(٢)..

الثاني: أن هناك تلازما بين ديانة كل قوم وكتابهم المقدس، وإذا ثبت بطلان

الكتاب وتحريفه لزم من ذلك فساد العقيدة التي تقوم عليه، ومن ثم تجد حديث ابن

حزم عن تحريف التوراة وزيفها يتناول جزءا كبيرا من كتابه «الفصل» مستخدما في

ذلك أنماطا مختلفة من الأدلة والبراهين..

ولقد اعتمد «أبو محمد» في إثبات تحريف التوراة على نظرتين أساسيتين:

أولا: النظرة إلى النصوص ذاتها.

ثانيا: النظرة إلى عوامل تاريخية.

(١) الموضع السابق.

(٢) الفصل ٢/٢.

١ - النظرة إلى النصوص ذاتها:

ونعنى بالنظرة الأولى... الكذب والتناقض ومغايرة الواقع الذى كشف عنه ابن حزم من داخل التوراة نفسها وأماط عنه اللثام ليكون برهانا لكل ذى عينين على أنه لا يمكن أن يكون من عند الله - عَجَلًا - وبذلك استطاع أن يجعل التوراة نفسها تحمل بين جنبئها دليل هدمها وبرهان بطلانها.

وهذه الأدلة التى أوردها ابن حزم فى كتابه.. والتى سنذكر هنا نماذج منها رفعت من شأن هذا الكتاب وسمت بصاحبه عند كثير من علماء الشرق والغرب - على اختلاف دياناتهم - إلى مستوى الريادة لمدرسة «النقد التاريخى للتوراة» يقول الدكتور «فيليب حتى» عن كتاب «الفصل»:

«أما أنفس كتب ابن حزم الباقية إلى الآن فهو كتاب «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» الذى يؤهل مؤلفه لاحتلال مركز الأولوية بين العلماء الذين عنوا بدراسة الأديان على سبيل النقد والمعارضة، وفى هذا الكتاب لفت ابن حزم الأنظار إلى بعض مشاكل فى قصص التوراة، لم ينتبه لها فكر أحد من العلماء وحتى ظهور مدرسة نقد التوراة العلمى فى القرن السادس عشر^(١)».

ولقد أورد ابن حزم - فى بيان بطلان التوراة وأنها ليست من عند الله «سبعة وخمسين فصلا يجمع الفصل الواحد منها سبع كذبات أو متناقضات، سوى ثمانية عشر فصلا يتكاذب فيها نص توراة اليهود مع نص تلك الأخبار بأعيانها عند النصارى^(٢)».

ومن أبرز الأمثلة التى ذكرها ابن حزم ليثبت به تحريف التوراة ما يلى:
أولاً: حديثها عن الله - سبحانه - حديثاً لا يليق بجلاله، ووصفه بصفات يتنزه عنها رب العباد:

(أ) من ذلك ما ورد فيها من تشبيهه وتجسيمه: كقول التوراة: (إن الله - عَجَلًا - قال لبنى إسرائيل: لقد رأيتموني كلكم فى السماء فلا تتخذوا معى آلهة الفضة^(٣)).

(١) العرب تاريخ موجز ١٢٨.

(٢) الفصل ١ / ١٨٦.

(٣) الفصل ١ / ١٦٠ - ١٦١.

ثم قال بعد ذلك: «ثم صعد موسى وهارون - عليهما السلام- وناداب وأبيهو وسبعون رجلا من المشايخ ونظروا إلى إله إسرائيل، وتحت رجله كلبنة من زمرد فيروزى، وكسماء صافية ولم يمد الرب يده إلى خيار بنى إسرائيل الذين نظروا إلى الله وأكلوا وشربوا، وقال بمقربة من ذلك: وكان منظر عظمة السيد كمنار آكلة فى القرن الجبل، يراه جماعة من بنى إسرائيل^(١)».

(ب) ورود نصوص تفيد تعدد الآلهة، وتنافى ما ثبت لله من وحدانية: مثال ذلك: (وقال الله هذا آدم صار كواحد منا فى معرفة الخير والشر)^(٢).

(ج) نسبتها البُتوة والمصاهرة لله تعالى: كقولهم فيها: (فلما ابتدأ الناس يكثرون على ظهر الأرض وولد لهم البنات، فلما رأى أولاد الله بنات آدم أنهن حسان اتخذوا منهم نساء^(٣)).

(د) نسبتها الكذب لله - تعالى - بإخباره عن أمر يغير الواقع: مثال ذلك قولهم فى التوراة: (كل من قتل قابيل نفاديه إلى سبعة) وهذا لم يحدث.. ومعاذ الله أن يخلف وعده^(٤)..

(هـ) ذكر التوراة أن الله كان يهيم بالشىء فيبدو له غيره فيتركه، وهو ما يسمى بالبداء، ولاشك أن هذه صفة المخلوقين، وليست صفة الله الذى لا يخفى عليه شىء من خلقه..

وذلك كما ورد فى سفر الخروج أن الله قال لموسى: دعنى أغضب عليهم وأهلكهم وأن موسى رغب إليه، وقال له تذكر إبراهيم، وإسرائيل، وإسحق، فحن السيد ولم يتم ما أراد إنزاله من المكروه بأمتة^(٥)..

(و) ما ورد فى التوراة من أن يعقوب - عليه السلام - صارع الله - تعالى - وأن الله - تعالى

(١) الموضع السابق، وراجع سفر الخروج ٢٤ : ٩ - ١١.

(٢) الفصل ١ / ١٢٠ وراجع سفر التكوين ٣ : ٢٢.

(٣) الفصل ١ / ١٢١ وراجع سفر التكوين ٦ : ١ - ٢.

(٤) الفصل ١ / ١٦٣ وراجع سفر التكوين ٤ : ٢٤.

(٥) الفصل ١ / ١٦٣ وراجع سفر الخروج ٣٢ : ١٠ - ١٤.

عن ذلك - عجز عن أن يصرع يعقوب فقال له (كنت قويا على الله فكيف على الناس) ولذلك سمي إسرائيل.

وهذه الحادثة واضحة الوضع، لا تحتاج إلى كبير استدلال لنتثبت كذبها^(١).
٢- وصف توراتهم لأنبياء الله وملائكته بصفات تستحيل شرعا وعقلا وعادة:
من ذلك:

(أ) سجدوا إبراهيم - ﷺ - للملائكة التي جاءت به بالبشرى وخطابه لهم بالعبودية، وإخبارها عن الملائكة أنهم أكلوا من الخبز والشواء الذي قدمه لهم نبي الله إبراهيم - كما ورد في سفر التكوين - وهنا نجد ابن حزم يقارن بين نقل التوراة ونقل القرآن لهذه القصة فيقول: «أين هذا الكذب البارد الفاضح الذي يشبه عقول اليهود المصدقين به، من الحق المنير الواضح عليه ضياء اليقين من قول الله - ﷻ - في هذه القصة نفسها...»^(٢) ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (سورة: هود).

(ب) نسبة أعمال الشرك والكفر إلى الأنبياء - ﷺ - كما جاء في التوراة أن هارون - ﷻ - عمل لقومه إلهها يعبدونه من دون الله، وبنى للعجل مذبحا، ولا شك أن رسل الله معصومون من هذه الأعمال مبرأون من هذه النقائص التي لا تليق بهم، ولا تتفق مع رسالتهم بل في نسبة هذه الأعمال إليهم استخفاف ونقص لأقدارهم وما يجب لهم^(٣).

(ج) إطلاق التوراة على نبي الله يعقوب أنه خدع أباه وغشه وأنه كذب على أبيه إسحاق وقال له أنا ابنك «عيساو» وهذا مبعد عن فيه خير من أبناء الناس مع الكفار والأعداء، فكيف من نبي مع أبيه وهو نبي أيضا...^(٤)؟

(د) نسبة الزنا والفاحشة لأنبياء الله - ﷺ - كما جاء في التوراة أن لوطا - ﷻ - زنى بابنتيه بعد أن شرب الخمر وسكر، وحملت ابنتا لوط من أبيهما،

(١) راجع ما مر عن هذه القصة ص

(٢) الفصل ١ / ١٣١ وراجع - أيضا - سفر التكوين ١٨ : ١ - ٨.

(٣) الفصل ١ / ١٦١.

(٤) الفصل ١ / ١٣٧.

وولدت الكبرى ابنا وسمته مؤاب وهو أبو المؤابيين ، وولدت الصغرى ابنا وسمته ابن عمى ، وهو أبو العمونيين إلى اليوم^(١) .. كما جاء فى التوراة -أيضا - أن رؤوبين ضاجع سرية أبيه ، وأن يعقوب قال لابنه فى آخر حياته : (إنك صعدت على سرير أبيك ووسخت فراشه) وتروى عن شكيم بن حمور أنه أخذ دينة بنت يعقوب - عليه السلام - واضطجع معها وأذلها^(٢) ..

ويقول ابن حزم - تعقيبا على ذلك - : «معاذ الله أن يخذل الله نبيه ولا يعصمه فى حرمة امرأته وابنته من هذه الفضائح»^(٣) .

(هـ) التوراة تجعل نسب سليمان بن داود - عليه السلام - يرجع إلى فارص بن يهوذا الذى أتى من المرأة التى زنى به يهوذا.. فجعلت توراتهم الرسولين الفاضلين مولودين من تلك الولادة الخبيثة راجعين إلى ولادة الزنا^(٤) ..

ثالثا: مخالفة ما ورد فى التوراة للحقائق العلمية المقررة ، وتكذيبها للواقع المشهور :

(أ) وذلك كحديثها عن الأنهار ومصباتها ، والذهب وأماكن وجوده ، ومخالفة ذلك لما هو معروف وثابت^(٥) .

(ب) خطأ التوراة من ناحية العدّ والحساب.. وقد أورد ابن حزم كثيرا من النصوص التى تعارضت فيها الأرقام ، ويعلق عليها بقوله : «معاذ الله أن يكذب موسى - عليه السلام - أو يخطئ فيما أوحى الله تعالى إليه ، فوضح يقينا لكل من له أدنى فهم وضوحا يقينا ، كما أن أمس قبل اليوم ، أنها ليست من عند الله تعالى ولا من أخبار نبي ولا من تأليف عالم يتقى الكذب ، ولا من عند من يحسن الجمع والطرح والقسمة ولكنها بلا شك من عمل كافر مستخف ماجن...»^(٦) .

(١) الفصل ١ / ١٣٣ .

(٢) الفصل ١ / ١٤٣ .

(٣) الفصل ١ / ١٤٣ .

(٤) الفصل ١ / ١٤٧ .

(٥) راجع الفصل ١ / ١١٨ ، وراجع أيضا - سفر التكوين ٢ : ١٠ - ١٤ .

(٦) الفصل ١ / ١٢٨ .

رابعاً: حديث التوراة عن وفاة موسى - ﷺ - وأنه مات في أرض مُؤاب، وكان سنه مائة وعشرين سنة، وأن الذي خلفه يوشع بن نون.. إلى آخر ما ذكرت في هذا الأمر^(١). وابن حزم يستمد من ذلك دليلاً قاطعاً، وحجة دامغة على أن توراتهم تاريخ مؤلف، وأنها غير منزلة من عند الله، بل إن هذا النص ليفيد أنها ألفت بعد وفاته بدهر طويل، إذ العقل لا يجيز أن يكون هذا الفصل نزل على موسى في حياته^(٢).. وعندى أن هذا الفصل الذى ختم به ابن حزم مناقشته لنصوص التوراة وبيان كذبها وتناقضها من أدق وأقوى الأدلة فى إثبات وضع التوراة وتبديلها، وأنها ليست من عند الله العزيز الحكيم.

وحقيق بمن يحترم عقله، ويقرأ هذا الفصل وغيره من توراة اليهود أن يهتدى إلى الحق، ويؤمن برسالة الإسلام التى ختم بها الرسالات، ونسخ بها ما سبق من أحكام وشرائع..

٢ - النظرة إلى عوامل تاريخية:

ونقصد بها الظروف التى مرت بها التوراة منذ أن توفى موسى - ﷺ - إلى أن كتبها لهم «عزرا الوراق» بإجماع من كتبهم، واتفاق من علمائهم.. وقد أورد ابن حزم فى كتابه «الفصل» أولئك الذين تولوا أمر بنى إسرائيل منذ دخلوا الأرض المقدسة إثر موت موسى - ﷺ - إلى ولاية أول ملك عليهم، وهو «شاو» مبينا أن بنى إسرائيل خلال تلك الفترة ارتدوا «سبع رذات»!! فارقوا فيها الإيمان، وجاهروا بالكفر وعبادة الأوثان، مما يكشف عن فساد طبيعتهم من جانب، ويفسر كثرة أنبيائهم من جانب آخر..

ويحدد ابن حزم - بكل دقة - أن الرذة الأولى بقوا فيها ثمانية أعوام، والثانية ثمانية عشر عاماً، والثالثة عشرين عاماً، والرابعة سبعة أعوام، والخامسة ثلاثة أعوام، والسادسة ثمانية عشر عاماً، والسابعة أربعين عاماً (!!)

(١) راجع سفر التثنية ٣٤ : ٥ - ١٢.

(٢) راجع الفصل ١ / ١٨٥ - ١٨٦.

ثم يتساءل - بحق - : أى كتاب يبقى مع تهادى الكفر ورفض الإيمان هذه المدد الطوال، فى بلد صغير مقدار ثلاثة أيام فى مثلها فقط ليس على دينهم واتباع كتابهم أحد على ظهر الأرض غيرهم؟!.

ولم تكن حال التوراة فى عهد ملوك بنى سليمان، وملوك الأسباط العشرة بأفضل من ذى قبل.. لقد فشا فيهم الكفر، وانتشر بين ملوكهم، منهم «رحبعام بن سليمان» الذى ولى سبعة عشر عاما فأعلن الكفر طول ولايته وعبد الأوثان جهارا هو وجميع رعيته وجنده.. وعندما ولى ابنه لم يكن أحسن حالا من أبيه إذ بقى على الكفر وعبادة الأوثان علانية ست سنين هى مدة ولايته.. ومن هؤلاء الملوك امرأة تدعى «عثليا بنت عمرى» عندما تولت الحكم تمادت - مثل ولدها - فى الكفر وعبادة الأوثان، وقتلت الأطفال، وأمرت بإعلان الزنا فى بيت المقدس وجميع البلاد، وأمرت أن لا تمنع امرأة ممن أراد الزنا معها، كما عهدت أن لا ينكر ذلك أحد! ولم يكتف أكثر ملوك بنى سليمان بعبادة الأوثان بل قتلوا أنبياء الله ورسله، كما فعل «يوآش بن أحزيا» الذى قتل زكريا النبى - ﷺ - بالحجارة واستمرت ولايته على الكفر وعبادة الأوثان أربعين سنة.. كما قتل - أيضا - عاموص النبى الداودى فى عهد عزيا بن أمصيا.. وفى عهد منسى بن حزقيا قتل «شعيا» النبى، قيل نشره بالمنشار من رأسه إلى مخرجه، وقيل قتله بالحجارة وأحرقه بالنار.. وقد استمر على ضلاله وكفره خمسا وخمسين سنة.. وهنا يسأل ابن حزم: يا معشر السامعين بلد تعلن فيه عبادة الأوثان وتبنى هياكلها، ويقل من وجد فيه من الأنبياء، كيف يجوز أن يبقى فيه كتاب الله سالما، أم كيف يمكن هذا؟؟.

ومما يؤكد تحريف التوراة عند ابن حزم، إقرار اليهود بأن «يهوآحازين يوشيا» الملك الداودى المالك لجميع بنى إسرائيل بعد انقطاع ملوك سائر الأسباط، بَشْر من التوراة أسماء الله - تعالى - وألحق فيها أسماء الأوثان، وهم مقرون - أيضا - أن أخاه الوالى بعده وهو «الياقيم بن يوشيا» أحرق التوراة بالجملة وقطع أثرها، واستمر أكثر هؤلاء الملوك فى إعلان الكفر، وعصيان الله، وقتل رسله حتى أغار عليهم بخت

نصر (٥٨٦ ق. م) فهدم البيت، واستأصل جميع بنى إسرائيل وأخلى البلد منهم، وحملهم مسبيين إلى بلاد بابل..

أما ملوك الأسباط العشرة، فهم - كما يقول صاحب الفصل - لم يكن فيهم مؤمن قطُّ ولا واحد فما فوقه..!! بل كانوا كلهم معلنين بعبادة الأوثان مخيفين للأنبياء، مانعين القصد إلى بيت المقدس، لم يكن فيهم نبي - قط - إلا مقتولا أو هاربا مُخافا.. ويورد ابن حزم أسماء هؤلاء الملوك، ملكا، ملكا، مبيينا حالهم من الكفر وعبادة الأوثان، وعصيان الله ورسله، وكيف أن التوراة طوال هذه المدة لم يكن لها عندهم ذكر ولا رسم ولا أثر، ولا كان عندهم شيء من شرائعها أصلا.. إنما كانت فقط في التابوت عند الكوهن الأكبر وحده، وبقوا على ذلك نحو ألف ومائتى عام لا يصل إلى ذلك الموضع أحد سواه، وما كان هكذا لا يتداوله إلا واحد فمضمون عليه التبديل والتغيير والتحريف، والزيادة والنقصان.. كما أنهم مقرون بأن «عزرا» الذى كتبها لهم من حفظه بعد انقطاع أثرها، إنما كان وراقا ولم يكن نبيا، إلا أن طائفة منهم قال فيه إنه ابن الله.. وقد بادت هذه الطائفة وانقطعت.. فأى داخلة أعظم من هذه الدواخل التى دخلت على توراتهم..